

الشعر الجاهلي بين الرواية والتدوين

مقدمة

اعتمد الشاعر العربي القديم على حساسية الأذن، بالاعتماد على الرواية في حفظ ما يقول من قصائد، أو الاستماع إليها في الأسواق، فكانت الخصوصية الشفوية الإبداعية للقصيدة الشعرية الجاهلية تتوافق مع قدرات المتلقي؛ حيث تماثلت البنى الشعرية مع البنى الذهنية لفئات المجتمع الجاهلي، ومن ثم شاع النص الشعري في البيئة الجاهلية ؛ لأن المتلقي وجد فيه مفردات حياته وقضاياها.

إن الشفوية تفترض السَّماع؛ لأن الصوت يستدعي الأذن، ولهذا تميزت الشفوية في الشعر الجاهلي بفن خاص في القول الشعري، إذن، هناك علاقة قوية بين الشفوية الشعرية في العصر الجاهلي وبين السَّماع، ولعل ذلك يرتد إلى أن النقد الشعري الجاهلي أُسس على مبدأ السَّماع، فلم يكن الشاعر الجاهلي ينشئ الشعر لنفسه، بل لغيره، لمن يسمعه ويتأثر به. فرضت الشفاهية شكلاً معيناً لنظم القصيدة الشعرية العربية؛ فجاءت على الشكل التقليدي، القائم على وحدة البيت، ووحدة التفعيلة، ووحدة القافية، واستقر هذا النسق واستمر زمناً طويلاً.

وإذا كان أمر حفظه مفروغاً منه، فإن وسيلة الحفظ ظلت محل جدل إلى يومنا؛ حيث رأى بعض الدارسين أن الرواية الشفوية هي وسيلة انتقال الشعر الجاهلي من جيل إلى جيل، حتى وصل إلى عصر التدوين في القرن الثاني؛ حيث دُوّن في دواوين خاصة، ومجموعات عامة، ويقف فريق آخر موقفاً وسطاً ؛ حيث يرى أن العرب الجاهليين كانوا قد دونوا بعض أشعارهم، لكن الرواية الشفوية، هي التي حفظت الشعر الجاهلي من الضياع.

الشعر الجاهلي شعر مروي

لم تكن العرب تُدون شعرها في الجاهلية في ديوان أو سفر، وإنما كان محفوظاً في الصدور، وقد تَعَجَّب مما تقرأ من رواة العرب بعد الإسلام، وكثرة ما كانوا يحفظون، ولكن لا عجب، فملكات الذكاء والحفظ قوية عند العرب، وكانت تعينهم على تخليد الشعر العربي خشية الضياع.

كان الشاعر يقوم بنظم الشعر؛ لكنه لم يستطع أن يحفظ في عقله كل القصيدة في أثناء تأليفها، ولذلك فهو يؤلف قطعاً قصيرة، ينشدها على أصدقائه ليحفظوها، تاركين إياه ليستمر في عملية النظم، وهكذا حتى ينتهي.

أصناف الرواة

كان لكل شاعر راو أو رواة يلزمونه ويحفظون شعره، ويذيعونه بين الناس، وكان هؤلاء الرواة صنفين: رواة شعراء، وهؤلاء يؤدون وظيفة الرواية، إلى جانب تتلمذهم على يد الشاعر الذي يلزمونه ويروون شعره. ورواة غير شعراء، وكانوا في أغلب الأحيان من قبيلة الشاعر، وثمة صنف ثالث من الرواة، وهم رواة القبائل، وهؤلاء لوان أيضاً : فمنهم من يختص برواية شعر شعراء قبيلة بعينها، دون أن يكون واحداً منهم، ومنهم بعض أبناء القبيلة؛ الذين يحرصون على رواية شعر شعرائهم، وما فيه من مفاخر وأمجاد.

مميزات الرواة وصفاتهم

كان الرواة ممن يتمتعون بالذوق الشعري السليم؛ لأنهم لم يعتمدوا فقط على حفظهم للشعر، بقدر اعتمادهم على قدرتهم، على إعادة إنشاء العبارات للفكرة التي أمامهم. وبينما كان الشاعر يقوم بنظم شعره، كان الراوي يحفظ هذا الشعر، ويتلوه على الناس، ومن هنا ظهرت طبقة من الشعراء الرواة، وكأنهم كانوا يتمرنون على نظم الشعر أثناء مصاحبتهم لشعرائهم؛ فامرؤ القيس وصل إلى مهارته في وصف الخيل، من الشاعر الذي كان يعمل له راوياً، وهو أبو دؤاد الإيادي، وكذلك كان زهير راوياً لأوس بن حجر، والحطيئة كان راوياً لزهير.

كان هؤلاء الشعراء يعتمدون على امتلاك عدد هائل من المعاني والأفكار، وأسماء الأعلام، ومخزون لا ينفد من كلمات معينة وعبارات محددة؛ لذا فمهمة الراوي لم تكن تنتهي بانتهاء حياة شاعره، بل كانت تزداد أهمية وخطراً؛ إذ يصبح مسئولاً أمام التاريخ الأدبي عن حمل أمانة الكلمة، والحفاظ عليها، وتسليمها للأجيال التالية كما سلمها صاحبها إليه.

مدرسة الصنعة

كانت الرواية الشفوية . إذن . الوسيلة الأساسية لحفظ الشعر الجاهلي، وكان الرواة منذ العصر الجاهلي يتلقون الشعر، ويحفظونه عن طريق المشافهة والسماع، ونستطيع أن نرى ذلك في مدرسة الصنعة الجاهلية، فقد كان أوس بن حجر التميمي راوية للطفيل الغنوي، وكان

زهير بن أبي سلمى راوية لأوس والطفيل، وأيضاً لخاله بشامة بن الغدير، وكان كعب بن زهير راوية لأبيه، وكان الحطيئة راوية لهما.

العصر العباسي وحركة التدوين

كان معظم الشعراء الجاهليين أميين؛ لذلك حُفظ شعرهم عن طريق الرُّواة، وعندما نشأت حركة التدوين في العصر العباسي، جمع علماء هذا العصر الشعر القديم من رواة البادية، وبالرغم من ثقافة هؤلاء، وسعة اطلاعهم، فقد غاب عنهم أن الشعر الجاهلي شعر مروي؛ أي إنه كان ينتقل من فم إلى فم، وفي كل مرة يُروى فيها، كان يدخله تغيير وتبديل، ويطرأ عليه زيادة ونقصان، لقد بذل علماء ذلك العصر جهدهم في تحقيق الأشعار وتوثيقها،

ومن هنا يمكن القول: إن الشعراء الجاهليين كانوا شعراء رواة، يعتمدون على هذا المخزون الهائل من الكلمات والعبارات، ويرتجلون أشعارهم خلال وقت الإنشاد، على عكس شاعر العصر العباسي الكاتب؛ الذي استطاع أن يخلق لنفسه أسلوباً متميزاً، لقد كانت أصالة الشاعر العباسي تكمن في قدرته على التجديد، أو إضافته لصورة من صور الشعر القديم، ومن ثم كان مطالباً بالتمسك بشكل القصيدة الجاهلية، وبالموضوعات التي عالجتها، ولكن كان عليه أن يعبر عن ذلك بكلمات مغايرة لما يقلده، وإلا اتهموه بالسرقه؛ لذلك اجتهد في أن يستمد لغته من نفسه.

وبعد، فقد أوضحت الدراسة أن الشعر الجاهلي . في جملته . شعر غنائي وصفي، تتراوح قصائده بين بضعة أبيات إلى مائة بيت أو ما قاربها؛ مما يسهل حفظها، ومن ثم، فإن أمر الاعتماد على الذاكرة في حفظه وتداوله، يبدو أمراً مقبولاً من غير شك. وهكذا يتضح لنا أن الشعر الجاهلي صحيح غير منحول، ولكنه لم يصل إلينا بالصورة التي كان عليها منذ نظمته الشعراء، وإنما على صورة قريبة، دخلها تغيير وتبديل نتيجة للرواية، ومحاولة نزع العناصر الوثنية منه، ورغم هذه الرواية والحافظة القوية، فقد ضاع الكثير من الشعر العربي.

نعم انتشر الشعر الجاهلي بالرواية، وكانت أسلوباً عملياً وعلمياً في حياتهم، يسهل اللجوء إليها والاعتماد عليها، فهي سجل العصر الموثوق به، وكأن الله تعالى أهل عقلية هذه الأمة في العصر الجاهلي؛ لتكون عقلية حافظة، واعية، عارفة بفنون الرواية التوثيق؛ لأنها ستحمل أمراً أشد خطراً وأعظم أثراً من الشعر والحكمة والأنساب والأحساب، هو تلقي القرآن الكريم، وحي الله ورسالته إلى الإنسانية عامة.